

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ

مِنْ

أَضْوَاءِ الْبَيِّنَاتِ

تأليف

الشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار
ابن بكين الشنقيطي

إعداد

أ.د. سيد محمد ساد آبي الشنقيطي
أستاذ الإعلام الإسلامي بكلية الدعوة
والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار الهدى النبوي

مصر - المنصورة

دار الفضية

الرياض - السعودية

والبلاغ اسم مصدر، بمعنى التبليغ، وقد علم باستقراء اللغة العربية، أن الفعال يأتي كثيراً بمعنى التفعيل، كبلغه بلاغاً، أي تبليغاً، وكلمه كلاماً، أي تكلماً، وطلقها طلاقاً، وسرحها سراحاً، وبينه بياناً.

كل ذلك بمعنى التفعيل؛ لأنَّ فَعَلَ مضعفة العين غير معتلة اللام ولا مهموزته قياس مصدرها التفعيل.

وما جاء منه على خلاف ذلك، يحفظ ولا يقاس عليه، كما هو معلوم في محله.

أما القول بأنَّ المعنى وذلك اللبث بلاغ، فهو خلاف الظاهر كما ترى، والعلم

عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

سُورَةُ الْقِتَالِ وَهِيَ سُورَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ ۗ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْنَا مِنْ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۗ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ۗ﴾.

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۗ﴾، قال بعضهم: هو من الصدود؛ لأنَّ صد في الآية لازمة، وقال بعضهم: هو من الصد؛ لأنَّ صد في الآية متعدية، وعليه: فالمفعول محذوف؛ أي صدوا غيرهم عن سبيل الله، أي عن الدخول في الإسلام.

وهذا القول الأخير هو الصواب؛ لأنه على القول بأنَّ صد لازمة، فإن ذلك يكون تكراراً مع قوله: ﴿كَفَرُوا﴾؛ لأن الكفر هو أعظم أنواع الصدود عن سبيل الله.

وأما على القول: بأنَّ صد متعدية فلا تكرار؛ لأنَّ المعنى أنهم ضالون في أنفسهم، مضلون لغيرهم بصددهم إياهم عن سبيل الله. وقد قدمنا في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَنَجْجِيَنَّهُمْ حَيَوَةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ [النحل: ٩٧]، أن اللفظ إذا دار بين التأكيد والتأسيس وجب حمله على التأسيس، إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ ۗ﴾؛ أي أبطل ثوابها، فما عمله

الكافر من حسن في الدنيا، كقرى الضيف، وبر الوالدين، وحمى الجار، وصلة الرحم، والتنفيس عن المكروب، يبطل يوم القيامة، ويضمحل ويكون لا أثر له، كما قال

تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ۗ﴾ [الفرقان]، وهذا هو

الصواب في معنى الآية.

وقيل: أضل أعمالهم؛ أي أبطل كيدهم الذي أرادوا أن يكيدوا به النبي ﷺ.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾؛ أي غفر لهم ذنوبهم وتجاوز لهم عن أعمالهم السيئة ﴿وَأَصْلَحَ بِهَدْيِهِمُ﴾؛ أي أصلح لهم شأنهم وحالهم إصلاحاً لا فساد معه، وما ذكره - جلّ وعلا - هنا في أول هذه السورة الكريمة، من أنه يبطل أعمال الكافرين، ويبقى أعمال المؤمنين جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسِرُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود]. وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى]. وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان].

وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا مع بعض الأحاديث الصحيحة فيه، مع زيادة إيضاح مهمة في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء]. وفي سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ...﴾ الآية [النحل: ٩٧]، وذكرنا طرفاً منه في سورة الأحقاف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيْبِنَا فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا...﴾ الآية [الأحقاف: ٢٠].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ أصله من الضلال بمعنى الغيبة، والاضمحلال، لا من الضالة كما زعمه الزمخشري فهو كقوله: ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤].

وقد قدّمنا معاني الضلال في القرآن واللغة، في سورة الشعراء، في الكلام على قوله: ﴿قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الشعراء]، وفي آخر الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ١٠٤]، وفي غير ذلك من المواضع.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ قد قدّمنا إيضاحه في أول سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾... الآية [الإسراء: ٩]، وفي سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ...﴾ الآية [النحل: ٩٧].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَمَّا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾. قال فيه ابن كثير: هو عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ، اه منه. ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِءٍ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالْتَأَرْ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾؛ جملة اعتراضية تتضمن شهادة الله بأن هذا القرآن المنزل على هذا النبي الكريم ﷺ هو الحق من الله، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦]. قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥١﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥٢﴾ [الحاقة]. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ [يونس: ١٠٨]. وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾؛ أي ذلك المذكور من إضلال أعمال الكفار أي إبطالها واضمحلالها، وبقاء ثواب أعمال المؤمنين، وتكفير سيئاتهم وإصلاح حالهم، كله واقع بسبب أن الكفار اتبعوا الباطل، ومن اتبع الباطل فعمله باطل، والزائل المضمحل تسميه العرب باطلاً وضده الحق. وبسبب أن الذين آمنوا اتبعوا الحق، واتباع الحق أعماله حق، فهي ثابتة باقية، لا زائلة مضمحلة.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن اختلاف الأعمال، يستلزم اختلاف الثواب، لا يتوهم استواءهما إلا الكافر الجاهل، الذي يستوجب الإنكار عليه، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿فَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْجُرْمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الجاثية].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾، قال فيه الزمخشري: فإن قلت: أين ضرب الأمثال؟ قلت: في جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين.

أو في أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين، اهـ. منه، وأصل ضرب الأمثال يراد منه بيان الشيء بذكر نظيره الذي هو مثل له.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ضَرْبُ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَنْتَمَوْهُمْ فَشَدُّوا الرِّوَابَ فَإِنَّمَا مِنْهُ بَعْدُ وَإِنَّمَا فِئَاءَهُ حَتَّىٰ تَصْعَقَ الرُّبُوبُ أَوْ رَأَاهَا﴾. قوله تعالى: فضرب الرقاب مصدر نائب عن فعله، وهو بمعنى فعل الأمر، ومعلوم أن صيغ الأمر في اللغة العربية أربع:

وهي فعل الأمر كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ أَلَسْمِيسِ﴾... الآية [الإسراء: ٧٨].

واسم فعل الأمر كقوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ﴾... الآية [المائدة: ١٠٥].

والفعل المضارع المجزوم بلام الأمر كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ﴾... الآية [الحج: ٢٩].

والمصدر النائب عن فعله كقوله تعالى: ﴿فَضْرَبَ الرِّقَابِ﴾؛ أي فاضربوا رقابهم، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَنْتَمَوْهُمْ﴾، أي أوجعتم فيهم قتلاً.

فالإثخان هو الإكثار من قتل العدو حتى يضعف ويثقل عن النهوض .
وقوله: ﴿ **تَشُدُّوا أَلْوَتَاقَ** ﴾ ؛ أي فأسروهم، والوثاق بالفتح والكسر اسم لما يؤسر به الأسير من قد ونحوه .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من الأمر بقتل الكفار حتى يثخنهم المسلمون، ثم بعد ذلك يأسرونهم جاء موضحاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿ **مَا كَانَتْ لِيَنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ** ﴾ [الأنفال: ٦٧]، وقد أمر تعالى بقتلهم في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿ **فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ** ﴾ . [التوبة: ٥] . وقوله: ﴿ **فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ** ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿ **وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً** ﴾ [التوبة: ٣٦] . وقوله: ﴿ **فَإِمَّا تَثَقَفَنَّ فِي الْحَرَبِ فَشَرِدْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ** ﴾ [الأنفال: ٥٧] .
وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ **فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً** ﴾ ؛ أي فإما تمنون عليهم مناً، أو تفادونهم فداء .

ومعلوم أنّ المصدر إذا سيق لتفصيل وجب حذف عامله، كما قال في الخلاصة:

وما لتفصيل كما منا عامله يحذف حيث عنا
ومنه قول الشاعر:

لأجهدن فإما درء واقعة تخشى وإما بلوغ السؤل والأمل

وقال بعض العلماء: هذه الآية منسوخة بالآيات التي ذكرنا قبلها، وممن يروى عنه هذا القول، ابن عباس، والسدي وقتادة، والضحاك، وابن جريج. وذكر ابن جرير عن أبي بكر رضي الله عنه ما يؤيده .

ونسخ هذه الآية هو مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه فإنه لا يجوز عنده المن ولا الفداء؛ لأنّ الآية منسوخة عنده بل يخير عنده الإمام بين القتل والاسترقاق .

ومعلوم أنّ آيات السيف النازلة في براءة نزلت بعد سورة القتال هذه .

وأكثر أهل العلم يقولون: إنّ الآية ليست منسوخة، وأنّ جميع الآيات المذكورة، محكمة، فالإمام مخير وله أن يفعل ما رآه مصلحة للمسلمين من منّ وفداء وقتل واسترقاق . وحول هذه المسألة أقوال للعلماء ذكرها الشيخ تفصيلاً فليرجع من أراد الوقوف عليها للأصل .

قوله تعالى: ﴿ **يَتَّخِطُّ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ نَصْرُوا اللَّهَ يُنْصِرْكُمْ وَيَبْتَئِنُّ أقدامكم** ﴾ (٧) .

ذكر الله - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أن المؤمنين إن نصرُوا ربهم نصرهم على أعدائهم، وثبت أقدامهم، أي عصمهم من الفرار والهزيمة .

وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، وبيّن في بعضها صفات الذين وعدهم بهذا النصر كقوله تعالى: ﴿ **وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [الحج: ٤٠]،

ثم بيّن صفات الموعودين بهذا النصر في قوله تعالى بعده: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿١٠﴾﴾ [الحج: ٤٧]، وكقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آية [غافر: ٥١]]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْثَنَا لِعِبَادِنَا الرُّسُلَ ۗ إِنَّهُمْ لَمُتَّصِرُونَ ﴿١٧٦﴾ وَإِن جُنَدْنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الصفات: ١٧٦]، إلى غير ذلك من الآيات. وقوله تعالى في بيان صفات من وعدهم بالنصر في الآيات المذكورة: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾... الآية [الحج: ٤١]، يدل على أن الذين لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، ليس لهم وعد من الله بالنصر البتة. فمثلهم كمثل الأجير الذي لم يعمل لمستأجره شيئاً ثم جاءه يطلب منه الأجرة.

فالذين يرتكبون جميع المعاصي ممن يتسمون باسم المسلمين، ثم يقولون: إن الله سينصرنا، مغرورون لأنهم ليسوا من حزب الله الموعودين بنصره كما لا يخفى. ومعنى نصر المؤمنين لله، نصرهم لدينه ولكتابه، وسعيهم وجهادهم في أن تكون كلمته هي العليا، وأن تقام حدوده في أرضه، وتمثل أوامره وتجنب نواهيه، ويحكم في عباده بما أنزل على رسوله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١١﴾﴾. قد قدّمنا إيضاحه في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، وأحلنا على الآيات الموضحة لذلك في سورة الروم، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾... الآية [الروم: ٩]؛ وأوضحناها في الزخرف، في الكلام على قوله: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾... الآية [الزخرف: ٨]. وفي الأحقاف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾... الآية [الأحقاف: ٢٦]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٢﴾﴾ والآيات التي توضح معنى هذه الآية، هي المشار إليها في نفس الآية، التي ذكرنا قبلها، وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من إخراج كفار مكة للنبي ﷺ منها بينه في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخْذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ الآية [المتحنة: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقد أخرجوه فعلاً بمكرهم المذكور، وبين - جلّ وعلا - أن النبي ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا من ديارهم لا ذنب لهم يستوجبون به الإخراج إلا الإيمان بالله، كما قال

تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [المنحنة: ١]؛ أي يخرجون الرسول وإياكم لأجل إيمانكم بربكم.

وقال تعالى في إخراجهم له: ﴿أَلَا تَقُنُوتُونَ قَوْمًا نَكَتُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾... الآية [التوبة: ١٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن كثير بهمزة مفتوحة بعد الكاف وياء مشددة مكسورة ونون ساكنة، وقرأه ابن كثير: «وكأئن»، بألف بعد الكاف، وهمزة مكسورة، وكلهم عند الوقف يقفون على النون الساكنة، كحال الصلة، إلا أبا عمرو فإنه يقف على الياء.

وقد قدمنا أوجه القراءة في «كأين» ومعناها، وما فيها من اللغات، مع بعض الشواهد العربية في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ الآية [الحج: ٤٥].

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن حَمْرٍ لَّدَى الَّذِينَ يَشْرَبُونَ﴾ أنهار الماء، وأنهار الخمر التي ذكرها الله في هذه الآية بين بعض صفاتها في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥]، في آيات كثيرة، وقوله: ﴿وَمَاءٌ مَّسْكُوبٌ﴾ [الواقعة]. وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات]، وقوله: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ [الغاشية]، وقد بين تعالى من صفات خمر الجنة أنها لا تسكر شاربها، ولا تسبب له الصداع الذي هو وجع الرأس في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿لَا يَصُدُّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ﴾ [الواقعة]، وقوله: ﴿لَا فِيهَا عَوْرٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُزْفُونَ﴾ [الصافات].

وقد قدمنا معنى هذه الآيات بإيضاح في سورة المائدة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَاللَّبَنُ وَالْأَسْبَابُ وَالَّذَلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾... الآية [المائدة: ٩٠]. وقوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾؛ أي غير متغير اللون ولا الطعم. والآسن والآجن معناهما واحد، ومنه قول ذي الرمة:

ومنهل آجن قفر محاضره تذرو الرياح على جماته البعرا
وقول الراجز:

ومنهل فيه الغراب ميت كأنه من الأجون زيت
سقيت منها القوم واستقيت

وبما ذكرنا تعلم أنّ قوله: ﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾، كقوله: ﴿مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، قد بين تعالى في سورة البقرة، أنّ الثمار التي يرزقها أهل الجنة يشبه بعضها بعضاً في الجودة، والحسن، والكمال، ليس فيها شيء رديء، وذلك في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رَّزَقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠].

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزخرف].

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾، التحقيق - إن شاء الله تعالى - في معنى هذه الآية الكريمة أن الكفار يوم القيامة إذا جاءتهم الساعة، يتذكرون ويؤمنون بالله ورسوله، وأن الإيمان في ذلك الوقت لا ينفعهم لفوات وقته فقوله: ﴿ذِكْرُهُمْ﴾؛ مبتدأ خبره ﴿فَأَنَّى لَهُمْ﴾؛ أي كيف تنفعهم ذكراهم وإيمانهم بالله، وقد فات الوقت الذي يقبل فيه الإيمان. والضمير المرفوع في ﴿جَاءَهُمْ﴾؛ عائد إلى الساعة التي هي القيامة.

وهذا المعنى: الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الكفار يوم القيامة يؤمنون ولا ينفعهم إيمانهم، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا ءَأَمْنَا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَافُثُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٦﴾﴾ [سبأ]، وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرُ ﴿٦٣﴾﴾ [الفجر].

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾. إلى قوله: ﴿أَوْ نُرْدُ فَعَمَلٌ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]. فظهر أن قوله: ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾؛ على حذف مضاف، أي أنى لهم نفع ذكراهم. والذكرى اسم مصدر بمعنى الاعتاط الحامل على الإيمان.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾، ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه إذا أنزل سورة محكمة، أي متقنة الألفاظ والمعاني، واضحة الدلالة، لا نسخ فيها وذكر فيها وجوب قتال الكفار، تسبب عن ذلك كون الذين في قلوبهم مرض أي شك ونفاق، ينظرون كمنظر الإنسان الذي يغشى عليه؛ لأنه في سياق الموت، لأنّ نظر من كان كذلك تدور فيه عينه ويزيغ بصره.

وهذا إنّما وقع لهم من شدة الخوف من بأس الكفار المأمور بقتالهم.

وقد صرح - جلّ وعلا - بأن ذلك من الخوف المذكور في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْحَوْفَ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩].

وقد بين تعالى أن الأغنياء من هؤلاء المنافقين، إذا أنزل الله سورة فيها الأمر بالجهاد، استأذنوا النبي ﷺ في التخلف عن الجهاد، وذمهم الله على ذلك، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أَذْهَبُوا وَالسَّيْفُ أُقْبِلُ وَمَنْهُمْ مَنْ كَفَرَ فَمَا يَصْبِرُونَ إِذْ أَنْزَلَ اللَّهُ الْبُرْجَانَ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة].

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ﴿٢٤﴾. الهمزة في قوله: «أفلا يتدبرون» للإنكار، والفاء عاطفة على جملة محذوفة، على أصح القولين، والتقدير يعرضون عن كتاب الله فلا يتدبرون القرآن كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وحذف متبوع بدا هنا استبح

وقوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾؛ «أم» فيه منقطة بمعنى بل، فقد أنكر تعالى عليهم إعراضهم عن تدبر القرآن، بأداة الإنكار التي هي الهمزة، وبين أن قلوبهم عليها أقفال لا تفتح لخير، ولا لفهم قرآن.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من التوبيخ والإنكار على من أعرض عن تدبر كتاب الله، جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ﴿٨٢﴾ [النساء]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ [المؤمنون]، وقوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكًا لِنَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ﴿١٩﴾ [ص].

وقد ذم - جلّ وعلا - المعرض عن هذا القرآن العظيم في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ . . . الآية [الكهف: ٥٧]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ ﴿٢١﴾ [السجدة: ٢٢].

ومعلوم أنّ كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم أي تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها والعمل بها، فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إنّ كان الله أعطاه فهماً يقدر به على التدبر، وقد شكّا النبي ﷺ إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ ﴿٢١﴾ [الفرقان].

وهذه الآيات المذكورة تدل على أنّ تدبر القرآن وتفهمه وتعلمه والعمل به، أمر لا بد منه للمسلمين.

وقد بين النبي ﷺ أنّ المشتغلين بذلك هم خير الناس. كما ثبت عنه ﷺ في الصحيح من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكُتُبَ وَبِمَا كُنْتُمْ تُدْرَسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

فإعراض كثير من الأقطار عن النظر في كتاب الله وتفهمه والعمل به وبالسنة الثابتة المبيّنة له؛ من أعظم المناكر وأشنعها، وإن ظن فاعلوه أنهم على هدى.

ولا يخفى على عاقل أن القول بمنع العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ اكتفاء عنهما بالمذاهب المدونة، وانتفاء الحاجة إلى تعلمهما، لوجود ما يكفي عنهما من مذاهب الأئمة من أعظم الباطل.

وهو مخالف لكتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة ومخالف لأقوال الأئمة الأربعة.

فمرتبه مخالف لله ولرسوله ولأصحاب رسوله جميعاً وللأئمة رحمهم الله، كما سترى إيضاحه - إن شاء الله تعالى - .

وهناك مسائل عديدة متعلقة بهذا المعنى تناولها الشيخ باستفاضة فليرجع من أراد الوقوف عليها للأصل .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُوا عَلَىٰ آذَانِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آتَبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ .

الظاهر أنّ الذين ارتدوا على أذبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى قوم كفروا بعد إيمانهم .

وقال بعض العلماء: هم اليهود الذين كانوا يؤمنون بنبيينا محمد ﷺ فلما بعث وتحققوا أنّه هو النبي الموصوف في كتبهم كفروا به .

وعلى هذا القول فارتدادهم على أذبارهم هو كفرهم به بعد أن عرفوه وتيقنوه، وعلى هذا فالهدى الذي تبين لهم هو صحة نبوته ﷺ ومعرفته بالعلامات الموجودة في كتبهم .

وعلى هذا القول فهذه الآية يوضحها قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [البقرة]، لأنّ قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ مبین معنى قوله: ﴿مِّن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾، وقوله: ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ مبین معنى قوله: ﴿أَرْتَدُوا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾ . وقال بعض العلماء: نزلت الآية المذكورة في المنافقين .

وقد بين - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنّ سبب ارتداد هؤلاء القوم من بعد ما تبين لهم الهدى، هو إغواء الشيطان لهم كما قال تعالى مشيراً إلى علة ذلك: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾؛ أي زين لهم الكفر والارتداد عن الدين، وأملى لهم؛ أي مد لهم في الأمر ووعدهم طول العمر .

قال الزمخشري: سول: سهل لهم ركوب العظائم من السؤل، وهو الاسترخاء، وقد اشتقه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعاً، وأملى لهم؛ ومد لهم في الآمال والأمانى، انتهى .

وإيضاح هذا أنّ هؤلاء المرتدين على أذبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى وقع لهم ذلك بسبب أنّ الشيطان سول لهم ذلك؛ أي سهله لهم وزينه لهم وحسنه لهم ومنهاهم بطول الأعمار؛ لأنّ طول الأمل من أعظم أسباب ارتكاب الكفر والمعاصي .

وفي هذا الحرف قراءتان سبعيتان: قرأه عامة السبعة غير أبي عمرو، «وأملى لهم» بفتح الهمزة واللام بعدها ألف وهو فعل ماض مبني للفاعل، وفاعله ضمير يعود إلى الشيطان .

وأصل الإملاء الإمهال والمد في الأجل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ إِنْ كِيدِي مَتِينٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَمِّلُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطَمِّلُ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ . . . الآية [آل عمران: ١٧٨].

ومعنى إملاء الشيطان لهم وعده إياهم بطول الأعمار، كما قال تعالى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء].

وقال تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِرْ مِنْ أَسْتَفْتَىٰ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾؛ إلى قوله: ﴿وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

وقال بعض العلماء: ضمير الفاعل في قوله: ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ﴾؛ على قراءة الجمهور راجع إلى الله تعالى.

والمعنى: الشيطان ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾؛ أي سهل لهم الكفر والمعاصي، وزين ذلك وحسنه لهم، والله - جلّ وعلا - أملى لهم؛ أي أمهلهم إمهال استدراج.

وكون التسويل من الشيطان والإمهال من الله، قد تشهد لهم آيات من كتاب الله كقوله في تزيين الشيطان لهم: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨]. وقوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ ﴿١٦٦﴾﴾ [النحل]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. إلى غير ذلك من الآيات.

وكقوله تعالى في إملاء الله لهم استدراجاً: ﴿سَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٦﴾ وَأْمَلِي لَهُمْ إِنْ كِيدِي مَتِينٌ ﴿١٨٦﴾﴾ [الأعراف]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَمِّلُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطَمِّلُ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ عَذَابُ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلِمَئِدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴿٧٥﴾﴾ [مريم: ٧٥]. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف]. وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ ﴿٥٥﴾ سُارِعٌ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقرأ هذا الحرف أبو عمرو وحده من السبعة: «وَأْمَلِي لَهُمْ» بضم الهمزة وكسر اللام بعدها ياء مفتوحة بصيغة الماضي المبني لِلْمَجْهُولِ والفاعل المحذوف فيه الوجهان المذكوران آنفاً في فاعل، «وَأْمَلِي لَهُمْ» على قراءة الجمهور بالبناء للفاعل.

وقد ذكرنا قريباً ما يشهد لكل منهما من القرآن كقوله تعالى في إملاء الشيطان لهم: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء]. وقوله في إملاء الله لهم: ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ إِنْ كِيدِي مَتِينٌ ﴿١٨٦﴾﴾ [الأعراف]، كما تقدم قريباً، والإشارة في قوله

تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ راجعة إلى قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ﴾.

أي ذلك التسويل والإملاء المفضي إلى الكفر بسبب أنهم ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾.

وظاهر الآية يدل على أنّ بعض الأمر الذي قالوا لهم سنطيعكم فيه مما نزل الله وكرهه أولئك المطاعون.

والآية الكريمة تدل على أنّ كل من أطاع من كره ما نزل الله في معاونته له على كراهته ومؤازرته له على ذلك الباطل، أنه كافر بالله بدليل قوله تعالى فيمن كان كذلك: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ (١٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٢٨).

وقد قدّمنا ما يوضح ذلك من القرآن في سورة الشورى، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] وفي مواضع عديدة من هذا الكتاب المبارك.

وبيّنا في سورة الشورى، أيضاً شدة كراهة الكفار لما نزل الله، وبيننا ذلك بالآيات القرآنية في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا دَعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣]. وقد قدّمنا مراراً أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾؛ قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة، عن عاصم: «أَسْرَارَهُمْ» بفتح الهمزة جمع سر.

وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: «إِسْرَارِهِمْ» بكسر الهمزة مصدر أسر كقوله: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٩]. وقد قالوا لهم ذلك سراً فأفشاه الله العالم بكل ما يسرون وما يعلنون.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ (١٧)؛ أي فكيف يكون حال هؤلاء إذا توفتهم الملائكة؟ أي قبض ملك الموت وأعوانه أرواحهم في حال كونهم ضاربين وجوههم وأدبارهم.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الملائكة يتوفون الكفار وهم يضربون وجوههم وأدبارهم جاء موضحاً في مواضع آخر من كتاب الله كقوله تعالى في الأنفال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وقوله في الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣] فقوله: ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ [الأنعام: ٩٣]، أي بالضرب المذكور.

والإشارة في قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ﴾؛ راجعة إلى المصدر الكامن في الفعل الصناعي؛ أعني قوله: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]؛ أي ذلك الضرب وقت الموت واقع بسبب ﴿بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ﴾؛ أي أغضبه من الكفر به، وطاعة الكفار الكارهين لما نزل.

والإسقاط استجلاب السخط، وهو الغضب هنا، وقوله: ﴿وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ﴾؛ لأن من أطاع من كره ما نزل الله فقد كرهه رضوان الله؛ لأن رضوانه تعالى ليس إلا في العمل بما نزل، فاستلزمت كراهة ما نزل كراهة رضوانه؛ لأن رضوانه فيما نزل، ومن أطاع كارهه، فهو ككارهه.

وقوله: ﴿فَأَحْطَ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ أي أبطلها؛ لأن الكفر سيئة لا تنفع معها حسنة، وقد أوضحنا المقام في ذلك إيضاحاً تاماً في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

وفي سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾... الآية [النحل: ٩٧].

واعلم أنّ هذه الآية الكريمة، قد قال بعض العلماء: إنها نزلت في المنافقين، وقال بعضهم: إنها نزلت في اليهود، وأنّ المنافقين أو اليهود قالوا للكفار الذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر، وهو عداوة النبي ﷺ والتعويق عن الجهاد ونحو ذلك.

وبعضهم يقول: إنّ الذين اتبعوا ما أسخط الله، هم اليهود حين كفروا بالنبي ﷺ لما عرفوه وكرهوا رضوانه، وهو الإيمان به ﷺ.

والتحقيق الذي لا شك فيه أنّ هذه الآيات عامة في كل ما يتناولها لفظها، وأن كل ما فيها من الوعيد عام لمن أطاع من كره ما نزل الله.

مسألة: اعلم أنّ كل مسلم يجب عليه في هذا الزمان تأمل هذه الآيات من سورة محمد وتدبرها، والحذر التام مما تضمنته من الوعيد الشديد؛ لأنّ كثيراً ممن ينتسبون للمسلمين داخلون بلا شك فيما تضمنته من الوعيد الشديد؛ لأنّ عامة الكفار من شرقيين وغربيين كارهون لما نزل الله على رسوله محمد ﷺ وهو هذا القرآن وما بيّنه به النبي ﷺ من السنن.

فكل من قال لهؤلاء الكفار الكارهين لما نزل الله: سنطيعكم في بعض الأمر، فهو داخل في وعيد الآية.

وأحرى من ذلك من يقول لهم: سنطيعكم في كل الأمر؛ كالذين يتبعون القوانين الوضعية مطيعين بذلك للذين كرهوا ما نزل الله، فإن هؤلاء لا شك أنهم ممن تتوفاهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم؛ وأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه، وأنه محبط أعمالهم، فاحذر كل الحذر من الدخول في الذين قالوا: سنطيعكم في بعض الأمر.

قوله تعالى: ﴿وَلَنبَلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ تَعَارَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّادِرِينَ وَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ﴾ ﴿٣١﴾.

اللام في قوله: «لنبلونكم» موثقة لقسم محذوف، وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير شعبة عن عاصم بالنون الدالة على العظمة في الأفعال الثلاثة أعني لنبلونكم، ونعلم، ونبلو، وقرأه شعبة عن عاصم بالمشناة التحتية.

وضمير الفاعل يعود إلى الله وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الله - جلّ وعلا - يبلو الناس؛ أي يختبرهم بالتكاليف كبدل الأنفس والأموال في الجهاد ليميز بذلك صادقهم من كاذبهم، ومؤمنهم من كافرهم، جاء موضحاً في آيات أخر.

كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصُرُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٤] وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِرِينَ﴾ ﴿١٢١﴾ [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا أَن تَتَّكِفُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَهَةٍ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا كَفَرُوا﴾ ﴿١١١﴾ [التوبة] وقوله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ﴾ ﴿٢١﴾ [العنكبوت] وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَىٰ الْغَيْبِ﴾ ... الآية [آل عمران: ١٧٩].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰ تَعَارَ الْمُجَاهِدِينَ﴾ ... الآية، قد قدمنا إزالة الإشكال في نحوه في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ﴾ ... الآية [البقرة: ١٤٣]. فقلنا في ذلك ما نصه: ظاهر هذه الآية قد يتوهم منه الجاهل أنه تعالى يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، بل هو تعالى عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون.

وقد بين أنه لا يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه بقوله - جلّ وعلا -: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. فقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ بعد قوله: «ليبتلي»، دليل قاطع على أنه لم يستفد بالاختبار شيئاً لم يكن عالماً به سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً؛ لأن العليم بذات الصدور غني عن الاختبار.

وفي هذه الآية بيان عظيم لجميع الآيات التي يذكر الله فيها اختباره لخلقه. ومعنى ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾: أي علماً يترتب عليه الثواب والعقاب، فلا ينافي أنه كان عالماً به قبل ذلك، وفائدة الاختبار ظهور الأمر للناس، أما عالم السر والنجوى، فهو عالم بكل ما سيكون، كما لا يخفى، اهـ.

قال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه: «وهذا العلم هو العلم الذي يقع عليه به الجزاء لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم، فتأويله حتى نعلم المجاهدين علم شهادة؛ لأنهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا، فالجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة، ونبلو أخباركم نختبرها ونظهرها» انتهى محل الغرض منه. وقال أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه: «ولنبلونكم أيها المؤمنون بالقتل وجهاد أعداء الله حتى نعلم المجاهدين منكم يقول: حتى يعلم حزبي وأوليائي أهل الجهاد في الله منكم وأهل الصبر على قتال أعدائه، فيظهر ذلك لهم، ويعرف ذوو البصائر منكم في دينه من ذوي الشك والحيرة فيه، وأهل الإيمان من أهل النفاق، ونبلو أخباركم فنعرف الصادق منكم من الكاذب»، انتهى محل الغرض منه بلفظه. وما ذكره من أن المراد بقوله: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ﴾... الآية، حتى يعلم حزبنا وأوليائنا المجاهدين منكم والصابرين له وجه، وقد يرشد له قوله تعالى: ﴿وَنَبَلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾؛ أي نظهرها ونبرزها للناس.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]؛ لأن المراد يميز الخبيث من الطيب ظهور ذلك للناس. ولذا قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، فتعلموا ما ينطوي عليه الخبيث والطيب، ولكن الله عرفكم بذلك بالاختبار والابتلاء الذي تظهر بسببه طوايا الناس من خبث وطيب، والقول الأول وجيه أيضاً، والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ لَكُنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٣٢). الظاهر أن «صدوا» في هذه الآية متعدية، والمفعول محذوف، أي كفروا وصدوا غيرهم عن سبيل الله فهم ضالون مضلون.

وقد قدمنا في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ۚ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ [النحل: ٩٧]. أن التأسيس مقدم على التوكيد كما هو مقرر في الأصول. وصدوا هنا، إن قدرت لازمة؛ فمعنى الصدود الكفر، فتكون كالتوكيد لقوله «كفروا». وإن قدرت متعدية كان ذلك تأسيساً؛ لأن قوله: كفروا يدل على كفرهم في أنفسهم. وقوله: «وصدوا» على أنه متعد يدل على أنهم حملوا غيرهم على الكفر و«صدوهم» عن الحق، وهذا أرجح مما قبله.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾؛ أي خالفوا محمداً ﷺ مخالفة شديدة.

وقد دلت هذه الآية الكريمة على أمرين: أحدهما: أن الذين كفروا وصدوا غيرهم عن الحق وخالفوه ﷺ لن يضرروا الله بكفرهم شيئاً؛ لأنه غني لذاته الغني المطلق.

والثاني: أنهم إنما يضررون بذلك أنفسهم؛ لأن ذلك الكفر سبب لإحباط أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَسَيُحِطُّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة جاءا موضحين في آيات من كتاب الله.

فمن الآيات الدالة على الأول الذي هو غنى الله عن خلقه، وعدم تضرره بمعصيتهم: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨] وقوله تعالى: ﴿فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعْتَبَ اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦] وقوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] إلى غير ذلك من الآيات.

ومن الآيات الدالة على الثاني؛ وهو إحباط أعمالهم بالكفر أي إبطالها به: قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾... الآية [إبراهيم: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩] وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾... الآية.

قد قدّمنا كثيراً جداً من الآيات المماثلة له قريباً في جملة كلامنا الطويل على قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْءَانَ﴾... الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [١٦]. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أنّ من مات على الكفر لن يغفر الله له؛ لأن النار وجبت له بموته على الكفر، جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله.

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُبَدَّلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِثْلٌ فِي الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أَقْتَدَىٰ بِهِ ؕ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٣٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٣٥﴾ [البقرة]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتٍ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْرِكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ ﴿٣٥﴾. قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة وشعبة عن عاصم: «إلى السَّلَمِ» بفتح السين، وقرأ حمزة وشعبة: «إلى السَّلْمِ» بكسر السين.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهْتُوا﴾ أي لا تضعفوا وتدلوا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٧﴾ [الأنفال] أي مضعف كيدهم، وقول زهير بن أبي سلمى:

وأخلفتك ابنة البكري ما وعدت فأصبح الحبل منها واهناً خلقاً

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾؛ جملة حالية؛ أي فلا تضعفوا عن قتال الكفار وتدعوا إلى السلم، أي تبدءوا بطلب السلم أي الصلح والمهادنة وأنتم الأعلىون؛ أي والحال أنكم أنتم الأعلىون أي الأقهرون الأغلبون لأعدائكم، ولأنكم ترجون من الله من النصر والثواب ما لا يرجون.

وهذا التفسير في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾؛ هو الصواب، وتدل عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى بعده: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾؛ لأن من كان الله معه هو الأعلى وهو الغالب وهو الفاهر المنصور الموعود بالثواب.

فهو جدير بأن لا يضعف عن مقاومة الكفار ولا يبدأهم بطلب الصلح والمهادنة.

وكقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ [الصفات]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١]، وقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿فَتَلَوْهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ بِنَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤].

ومما يوضح معنى آية القتال هذه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهْتُوا فِي ابْتِعَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا

تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ^ط وَرَجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ^ك . . . الآية [النساء: ١٠٤]؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿وَرَجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ^ك﴾؛ من النصر الذي وعدكم الله به والغلبة وجزيل الثواب، وذلك كقوله هنا: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ^ك﴾؛ وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ^ك﴾؛ أي بالنصر والإعانة والثواب.

واعلم أنَّ آية القتال هذه لا تعارض بينها وبين آية الأنفال حتى يقال: إن إحداهما ناسخة للأخرى، بل هما محكمتان وكل واحدة منهما منزلة على حال غير الحال التي نزلت عليه الأخرى.

فالنهي في آية القتال هذه في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ^ك﴾؛ إنما هو عن الابتداء بطلب السلم.

والأمر بالجنوح إلى السلم في آية الأنفال محلّه فيما إذا ابتدأ الكفار بطلب السلم والجنوح لها، كما هو صريح قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ^ك . . . الآية [الأنفال: ٦١].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ^ك﴾؛ قد قدّمنا الآيات الموضحة له في آخر سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ^ك﴾ [النحل]، وهذا الذي ذكرنا في معنى هذه الآية أولى وأصوب مما فسرها به ابن كثير رحمته الله.

وهو أنَّ المعنى لا تدعوا إلى الصلح والمهادنة وأنتم الأعلون؛ أي في حال قوتكم وقدرتكم على الجهاد.

أي، وأما إن كنتم في ضعف وعدم قوة فلا مانع من أن تدعوا إلى السلم أي الصلح والمهادنة، ومنه قول العباس بن مرداس السلمي:

السلم تأخذ منها ما رضيت به والحرب تكفيك من أنفاسها جرع

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَنْ يَرْزُقَكُمْ أَعْمَالَكُمْ^ك﴾؛ أي لن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم، وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة من عدم نقصه تعالى شيئاً من ثواب الأعمال جاء موضعاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً^ك﴾ [الحجرات: ١٤]؛ أي لا ينقصكم من ثوابها شيئاً، وقوله تعالى: ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَلْتَنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبَةً^ك﴾ [الأنبياء: ٨٧] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة، وقد قدّمناها مراراً.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَنْ يَزِيَكُمْ﴾؛ أصله من الوتر، وهو الفرد، فأصل قوله: ﴿وَلَنْ يَزِيَكُمْ﴾؛ لن يفردكم ويجردكم من أعمالكم بل يوفيكم إياها.
قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْاْ وَتَنَقَّبُواْ لِيُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ﴾.

هذه الأجور التي وعد الله بها من آمن واتقى جاءت مبينة في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرِسُوْلِهِ يُوْتِكُمْ كَهَاتَيْنِ مِنَ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ﴾ [الحديد، ٢٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ اَمْوَالِكُمْ﴾. في هذه الآية الكريمة أوجه معلومة عند أهل التفسير، منها أن المعنى ولا يسألكم النبي ﷺ أموالكم أجراً على ما بلغكم من الوحي المتضمن لخير الدنيا والآخرة.

وهذا الوجه تشهد له آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ اَجْرِ فَهُوَ لَكُمْ اِنْ اَجْرِي اِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبأ: ٤٧] وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا اَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ اَجْرٍ وَمَا اَنَا مِنَ الْمُنْظَرِيْنَ﴾ [ص: ٨٦] وقوله تعالى: ﴿اَمْ تَسْأَلُهُمْ اَجْرًا فَهُمْ يَنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُوْنَ﴾ [الطور: ١٢٤].

وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَنْقُورِ لَا اَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَ اِنْ اَجْرِي اِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩] وذكرنا بعض ذلك في سورة الشورى في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا اَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ اَجْرًا اِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبٰنِ﴾ [الشورى: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَاَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له قريباً في الكلام على قوله تعالى: ﴿اِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَنْ سَبِيْلِ اللَّهِ وَشَاقُّواْ الرَّسُوْلَ مِنْۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدٰى﴾... الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْاْ يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُوْنُوْاْ اَمْثَلَكُمْ﴾. قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة النساء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿اِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ اَيُّهَا النَّاسُ وَيَاْتِ بِآخَرِيْنَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذٰلِكَ قَدِيْرًا﴾ [النساء: ١٣٦].



بِسْمِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

سورة الفتح

قوله تعالى: ﴿اِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِيْنًا﴾، التحقيق الذي عليه الجمهور أن المراد بهذا الفتح صلح الحديبية؛ لأنه فتح عظيم.

وإيضاح ذلك أن الصلح المذكور هو السبب الذي تهيأ به للمسلمين أن يجتمعوا